
أبُوالقَاسم محمّد كرّو
مَــاي
شَهر الدّمَاء والدُّموع
في المغرب العربي
منشورات الطليعة
2011



أبو القاسم محمد كرو

❀ ولد بمدينة قفصة « تونس » ١-٧-١٩٢٤

❀ تلقى تعلمه الاولي بكتاب قرآني بها ثم التحق بالفرع الزيتوني في المدينة سنة ١٩٤٢. وفي سنة ١٩٤٤ انتقل للعاصمة فواصل دراسته الثانوية بالزيتونة الى اوائل سنة ١٩٤٨

❀ في ٧-٥-٤٨ هاجر الى الشرق العربي عن طريق ليبيا . وفي مصر التحق بمعهد الدراسات الخصوصية لاجتياز امتحان الشهادة الثانوية ثم الدخول للجامعة المصرية .

❀ في ١٣-١٠-٤٨ انتقل الى بغداد في اول بعثة تونسية للعراق ارسلها مكتب المغرب العربي بالقاهرة .

❀ في العراق التحق اولا بالكلية العسكرية وبعد شهر اجتاز امتحان معادلة للشهادة الثانوية العراقية ، والتحق بدار المعلمين العالية ، وهي كلية لتخريج الاساتذة للمدارس الثانوية . وقد تخرج فيها عام ١٩٥٢ بشهادة الاجازة « ليسانس » .

« البقية على الصفحة الثالثة من الغلاف »

مقدمة

الطبعة الثانية

يحتوي هذا الكتاب على محاضرة القيت ونشرت في بغداد سنة ١٩٥١

ورغم ان الكتاب يتعلق بالمغرب العربي فان قراء اقطاره الثلاثة ـ تونس ، الجزائر ، مراكش ـ لم يتمكنوا من قراءته والاطلاع عليه بسبب ما كان يفرضه الاستعمار على البلاد والعباد ، في السنوات الاخيرة ، من ارهاق للحرية واهدار للدماء ، وعدوان منظم على العقول والابدان والاقلام والصحف .. والافكار والمبادىء وكل ما كان يعتبره الاستعمار خطرا على وجوده المدجج بالسلاح والاغلال والمدعم بالرعب والارهاب .

وقد كثر سؤال القراء عن (هذا الكتاب) الذي سمعوا به ولم يروه .. كما كثر الحاحهم في اعادة طبعه وتقديمه لهم ، كما هو ، باعتبار انه جزء من كفاح هذا الشعب ضد الاستعمار ، وجزء من تاريخه الباسل المجيد في ميادين الصبر والبطولة والصمود والثبات .

وقد رأيت ان اجيب هؤلاء القراء الاعزاء لما طلبوه وان ألبي رجاءهم المتكرر وارضي رغبتهم الملحة بنشره بينهم في نفس الشهر الذي يدور حديث الكتاب عنه ، ويسجل احداثه الكبرى فيه ، ويتخذه عنوانا على محتواه .

ومن المهم ان نلاحظ هنا ان هذا الكتاب قد كتب في ظروف وملابسات يختلف اكثرها عن الظروف والملابسات التي يعيشها شعبنا اليوم سواء في تونس ام في الجزائر ام في مراكش .

فقد كتب هذا الكتاب وألقي محاضرة ، ثم نشر على القراء بغداد في اسبوع واحد فقط من شهر ماي سنة ١٩٥١ وشعب المغرب العربي يؤمئذ يتحفز للكفاح الدامي الرهيب ، ويستعد في صمت وهدؤ لخوض معركة البقاء او الفناء .. مع الاستعمار .. ولم يكن آنئذ الا افراد قلائل يحسون بقرب انتفاضة المغرب العربي ضد الاستعمار وبأن وثبته هذه ستكون آخر جولة مع الجبروت والطغيان ثم يكون بعدها وبها النصر الحاسم والفوز المبين .

وكأن فقرات هذا الكتاب الختامية كانت يومئذ انذار بهذه الثورة الدامية التي اعلنها العرب في تونس اولا ثم في مراكش ثانيا ، واخيرا في الجزائر ..

لقد اعلنت الثورة بعد ما تبين للعالم كله ان جميع الوسائل السلمية لم تجد شيئا في اقناع العقول الاستعمارية الرعناء وجعلها تسلم للشعوب بحقها في تقرير مصيرها ..

وفي ان تكون حرة مستقلة .

وها نحن نستقبل كل يوم حشدا جديدا من تباشير النصر والتقدم الصاعد .. فبعد ان شقت تونس ومراكش طريقهما المظفر نحو الاستقلال والسيادة وما تخلل ذلك من اوجاع وآلام ودماء ودموع ، تواصل الجزائر العربية الباسلة كفاحها المجيد من اجل اهدافها المشروعة في الاستقلال والحرية والكرامة الانسانية، تلك الكرامة التي كاد الاستعمار ان يمحو معالمها ومقوماتها في شعب الجزائر الصامد الصبور .

وان الاعتقاد الذي كان يملأ نفسي ويستقر في فؤادي كيقين وطيد سنة ١٩٥١ هو نفسه بل اشد منه الذي يملأ قلبي ويوجه عواطفي وافكاري نحو كفاح شعب الجزائر الشهم الشجاع .

واذا كان ثمة شيء يحز في نفسي الآن .. فهو اننا في تونس وفي مراكش ايضا لم نقف مع كفاح شعبنا في الجزائر الوقفات التي تجب علينا ـ ادبيا وعمليا ـ باعتبار ان كفاح الجزائر انما هو كفاحنا واهدافه انما هي اهدافنا وانتصاره انما هو انتصار لنا وعزة وكرامة تجمعنا .

ويجب ان نذكر هنا ان مساندتنا لكفاح الحرية في الجزائر ليس فقط واجبا اكيدا ومستعجلا ، لان الجزائر وتونس ومراكش تكون كلها وحدة تامة تاريخيا ودينيا وثقافيا واقتصاديا الخ بل ولاننا متأكدون ايضا بانه ما دام الاستعمار جاثما على ارض الجزائر فاننا لا يمكن ان نشعر بالاطمئنان على حريتنا واستقلالنا مهما كانت الوعود ، ومهما كانت الوثائق

ومن هذه النظرة الواقعية للمستقبل وللمصير ، وتلك العوامل القوية التي تجمع اقطار المغرب العربي كشعب واحد .. له تاريخ وآمال واهداف ومصالح واحدة .. تكون واجبات جسيمة ومسؤوليات كبرى لا يجوز ان نلعب بها او نساوم عليها واحرى ان نغفل عنها او نقف متفرجين على حرب دموية شريرة يشنها الاستعمار على جزء من شعبنا ليبيده ويفنيه ويمحو كيانه بالحديد والنار والدماء والدموع ..

الا فلنذكر بان التاريخ لن يرحمنا مهما علونا ، ومهما حاولنا ان نبرر اختفاءنا وقت المحنة ، وازورارنا ساعة الخطر

ان النصر الذي يطل الآن بانواره الباهرة على قلوب الابطال في جبال الجزائر سيملأ غدا ارضها وابناءها اعيادا وحرية وكرامة واستقلالا ،وسوف لن يبقى من الاستعمار الا ذكريات تملأ الكتب حقائق ، والقلوب حقدا على ايامه السود .. وبهجات وافراحا بايام النصر ومواقف البطولة

❁ ❁ ❁

وبعد لقد كان هذا الكتاب واجبا وتذكيرا بالواجب نحو المغرب العربي كله وهو ما يزال كذلك الى اليوم .. بل انه ليؤكد ذلك الواجب وتذكير المواطنين به ، خاصة نحو الجزائر .

وقد بقي الكتاب كما هو في طبعته الاولى ، رغم وقوع احداث كثيرة بعدها ، وذلك لانه ليس احصاء للاحداث، ولا سجلا لجرائم الاستعمار، وانما هو صورة منها ونموذج لها

وعسى ان يجد فيه القراء الذين الحو في طلبه ، ما يرضى رغبتهم ويحرك ضمائرهم وعقولهم للعمل من اجل تحرير قلب المغرب العربي ، الذى لا حياة لجناحي المغرب الادنى والاقصى بدونه .

ايها الملأ الكريم !

للشعوب كما للافراد ذكريات تستعيدها بين الحين والحين ، فتستعيد معها احداثا نسيتها ذاكرة الايام ، ولم تنسها ذاكرة التاريخ والاجيال . ولذكريات الشعوب هذه صور حزينة قاتمة ، واخرى صبيحة مشرقة . واذا كان الافراد يعتزون بذكرياتهم السعيدة ، فيكثرون من

حديثهم عنها ، ويلجأون اليها في ساعات صفائهم وانطلاقهم ، ويتجنبون كل ما من شأنه ان يذكرهم بما تلاشى من ذكرياتهم الحزينة السوداء ؛ فان الشعوب لتعتز هي الاخرى بذكرياتها المشرقة المفرحة ، وتجعل منها اعيادا تمجد فيها ابطالها واحداثها العظام ، وتتخذها وسيلة لبعث روح العزة الوطنية والاباء الشعبي في نفوس المواطنين عامة ، والجيل الجديد بوجه خاص .

وتختلف الشعوب في هذا المجال اختلافا كبيرا فيما بينها ، واختلافا كبيرا آخر بالنسبة لعصور كل شعب واجياله ، وبالنسبة لتاريخه واحداثه .

فالشعوب الحرة المستقلة ، التي تعيش متمتعة بسيادتها الكاملة ، ورخاء في الحياة شامل ، وعدالة اجتماعية مطاقة هذه الشعوب لا تستعيد ـ بطبيعة الحال ـ من ذكرياتها الا الصور المليئة بالرخاء والسعادة ، الطافحة بضروب البطولة والمجد ، متخذة منها اعيادا لامجادها ، ومواسم فرح وحبور لابنائها واجيالها . اما الشعوب المنكوبة المستضعفة ، فهي وحدها التي لا تجد ما تجتره من ذكريات الماضي البعيدة المندثرة ، واحداث الزمان الكثيرة الضائعة ، سوى ذكريات الحزن الاليم ، وبقايا الجراح الدامية فتتخذ منها ايام حداد وحزن ، ومناسبات للعبرة وتقوية الايمان في النفوس للنضال والكفاح من اجل الحرية الكاملة والعدل الشامل .

وهب مثل هذه الشعوب تملك من العز المقبور شيئا كثيرا او قليلا ، وهبها ترث عن اجدادها بطولات خارقة باهرة ، وامجادا ضخمة كبيرة ، فماذا عساها ان تفعل بذلك كله ، وهي تعيش في مسبغة وبؤس وفي نكد وعذاب ، تقضي ايامها مرهقة مكدودة ، ولياليها شقية مسهدة؟

هب شعبا من شعوب الارض يملك عظمة التاريخ كله وامجاد الانسانية جميعها ، وهو فاقد لحريته واستقلاله ، يعاني شتى انواع الظلم وكافة صنوف الاضطهاد ، يشقى من الفقر والجهل والخصاصة ، ويموت من الجوع والمرض والبؤس ، وتساق كل يوم الى المشانق والسجون ، مئات من رجاله ونسائه . هل ترون في هذا الشعب ـ ايتها السيدات والسادة ـ قدرة تمكنه من استعادة ذكرياته العزيزة الغالية ، وايامه الضاحكة الفقيدة ؟

اما انا فاني اعتقد ان الشعوب الغبية الراكدة ، هي وحدها التي تظل سادرة في احلام التاريخ ، نائمة بين احضان الماضي ، تستمرىء حياتها المرة وغصص عيشها المنكود بما تتجرعه من افيون التاريخ المجيد ، ومخدرات العظمة المحنطة .

اما الشعوب الواعية ، فهي التي تعرف نواحي الضعف من نفسها وجوانب القوة في ذاتها ، وهي التي تدرك ادراكا صحيحا واقعها الفاسد وحياتها الشقية ، فتنظم امرها وتجمع شملها ، ثم تمضي مكافحة في سبيل حقها في الحياة الطيبة ، مناضلة لتبديل واقعها الفاسد بآخر صالح نافع .

نعم ! ان محنتها تشتد وشقاءها يعظم ، لانها تذكر دائما وسط الشقاء ايام السعادة ، كما يقول « دانتي » . ولكنها بذلك تقوى على الكفاح والجلاد ، واذا ما قويت على الكفاح والجلاد ، فقد بلغت رشدها واستكملت اسباب الحياة ، ومن كان كذلك فهو يستطيع ان يأخذ حقه بالقوة ، وان يجعل من آماله وامانيه حقائق راهنة وواقعا مفروضا ، وهذه هي سياسة العالم اليوم . وهذا هو منطق الحياة في عصرنا الحاضر . وهذا ما اخذ الشعب العربي في المغرب يؤمن به ويسعى له ، ويعمل لتحقيقه في كافة الميادين وشتى الجبهات .

أجل ! أيها السادة ـ ان محنة الانسان تشتد وشقاءه يعظم عندما يذكر وسط الشقاء ايام السعادة ، ولكننا في المغرب العربي لا نذكر ايام سعادتنا الضائعة وسط الشقاء المستحكم ، لان اجيالنا الحاضرة لم تر من هذه السعادة اي لون ، ولم تذق لها اي طعم . فقد جاءت هذه السعادة التي حدثنا عنها التاريخ ثم ذهبت قبل ان تولد هذه الاجيال ، وعلى ذلك فنحن لا نذكر اليوم وسط هذا

الشقاء المستكمل الاسباب المتعدد الالوان ، الا ايام الحزن المر ، وذكريات الكآبة الدامية ، تمر بنا فنتألم بها ولكننا نصبر عليها ، ونكتئب منها ولكننا نتجلد لها ، وبذلك نكتسب من صبرنا ثباتا على الكفاح ومن تجلدنا ايمانا بحقنا المسلوب وعزما راسخا لاسترجاعه الينا واعادته لنا.

نحن في المغرب العربي لا نقضي يوما من ايام السنة دون ان نذكر فيه بألم عنيف وحزن اليم قاتم ، احد الجراح العميقة التي اثخننا بها الاستعمار في مثله من ايام السنين الماضية ، وليت الامر وقف عند هذا الحد ، فان هذه الايام الجديدة قل ان تخلو من جراح اخرى يدمي بها العدوان الاستعماري جسم شعبنا المنهوك ، ويريق من دماء ابنائه الشيء الكثير .

وهذا شهر ماي ، قد اخترت ان احدثكم الليلة عما اصابنا خلاله من محن وكوارث واحداث ونكبات ، ولست اخصه بالحديث لانه اكثر الشهور امتلاءا بالمصائب والمحن ، وان كان كذلك ، ولا لان اشهر السنة الباقية خالية من ذكريات العدوان والظلم ، فانها مليئة هي الاخرى بضروب الاضطهاد واصناف التنكيل والبغي لا سيما شهرا مارس وافريل ، لست اخص « ماي » لذلك كله او شيء منه ، وانما لان حوادثه تحتل مكانا بارزا في تاريخ الاستعمار في بلادنا ، ولانه شهر حداد في المغرب العربي ، ولان حوادثه امتازت بكثرة الدماء وكثرة الدموع ، بكثرة الضحايا والمنكوبين وبكثرة الشهداء والمناضلين .

شهر ماي شهر الدماء والدموع والكآبة والحزن شهر الالم والاسى والصوم والحداد ، شهر المشانق والمنافي والتعذيب ، شهر الاطفال الميتمين والامهات الثواكل شهر الارواح البريئة والنفوس المظلومة ، شهر الاعراض المستباحة والمقدسات المنتهكة ، شهر تصاعدت فيه الى عنان السماء ملايين الدعوات ومئات الالوف من ارواح الضحايا والشهداء تشكو الى خالق السموات والارض ظلم الانسان لاخيه الانسان ، وقسوة الانسان على اخيه الانسان ، شهر ماي شهر بدأ فيه تاريخ الاستعمار والظلم ، وبدأ منه تاريخ الكفاح والبطولة .

وها انا احدثكم عن هذه البداية للاستعمار ، واستعرض لكم صورا من ذلك الظلم ونماذج من ذلك الكفاح وتلك البطولات . ولن يكون حديثي استقصاءا لكل ما امتلأ به هذا الشهر من فواجع ومحن وجرائم وآثام ، فان ذلك يحتاج الى كتب ضخمة وجهد طويل . وانما ـ كما قلت قبل قليل ـ ساعرض عليكم صورا من هذا الظلم والعدوان التي ارتكبها الاستعمار في هذا الشهر فسجل بها على نفسه اشنع الجرائم واكبر الآثام التي عرفتها البشرية في تاريخها الطويل.

احتلال الجزائر

ان اول نكبة حدثت في هذا الشهر ، هي غزو الاستعمار الفرنسي للجزائر في شهر ماي من سنة ١٨٣٠ فكانت فاتحة عهد الاستعمار في المغرب العربي ، وكانت فاتحة النكبات والمصائب التي انهالت على ابنائه فيما بعد كالمطر ، وانتشرت بينهم كالطاعون .

ففي هذا الشهر من سنة ١٨٣٠ وقف ملك فرنسا شارل العاشر يودع جيوشه المهيئة لغزو الجزائر بخطاب جاء فيه :

(ان العمل الذي ستقوم به الحملة ترضية للشرف الافرنسي سيكون بمساعدة العلي القدير ، لفائدة المسيحية كلها) «١» وهكذا برهن ملوك فرنسا ورؤساء جمهوريتها فيما بعد على ولائهم لهذه الاسس وعملهم لتحقيق اهداف المسيحية كلها ، اي اهداف الاستعمار باسم المسيحية ، وان شئت الصواب فقل فكرة ابادة العرب في المغرب باسم المسيح والاعمال الانسانية .

لقد ورث الفرنسيون هذه الفكرة ، فكرة الاستعمار باسم المسيحية والخير الانساني ! ورثوا هذا عن مليكهم لويس التاسع الذي يطلقون عليه ، من عندهم لقب القديس الشهيد . هذا القديس الذي قاد الحملة

(١) حول الحركة العربية : ج ٢ ص ١٧٤

الصليبية السابعة على مصر حيث وقع اسيرا وهلك جيشه في وادي النيل ، هذا الملك هو الذي قاد بعد ذلك الحملة الصليبية الثامنة على تونس حيث لقي حتفه هو وجنوده في معارك حدثت بقرطاجنة على بعد بضعة كيلومترات من تونس ومن الساحل الذي نزلوا فيه. وجاء بعده الكردنال لافيجري (١) هذا الرجل الذي وضع الخطط لتنصير العرب في المغرب قبل ان تطأ اقدام الفرنسيين جميع اراضيه بزمن بعيد، مبينا ان تمسك العرب الافارقة بالاسلام ، دينهم القومي ، سوف يعوق الاحتلال الفرنسي ويمنع بقاء الفرنسيين حاكمين الى الابد . !

وهكذا يتضح ان الفرنسيين، سواء في اعمالهم العسكرية ام السياسية ام الثقافية ام الدينية وحتى الانسانية، لا يستهدفون الا ابادة العرب ومحو كيانهم ، والقضاء على جميع مقوماتهم من ثقافة ولغة ودين وكيان سياسي وجغرافي واجتماعي (١)

لقد بدأت فرنسا غزو الجزائر بدون اعلان حرب، وبلا سابق انذار ، ومع فقد اي سبب يبرر العدوان والاعتداء ، بل على العكس كانت فرنسا مدينة للجزائر باموال كثيرة ، هذه الديون التي كانت احد الاسباب التي حاولت فرنسا فيما بعد ان تبرر بها حملتها على تونس ، ولكنه منطق القوة لا مفهوم له ولا حق يصمد امامه .

لقد كانت حملة فرنسا على الجزائر مؤلفة من اسطول حربي عدد سفنه ١٠٣ مجهزة بنحو ثلاثة آلاف مدفع ، ومن جيش مقاتل عدته اربعون الفا . واسطول تجاري يحمل المؤن والعتاد مؤلف من ٤٠٠ سفينة . وانزل الفرنسيون قواهم في احدى النقاط الساحلية التي تبعد قليلا عن الجزائر ـ العاصمة ـ وتحصنوا فيها وكانوا قد اعدوها لمثل هذه المناسبة من قبل .. » (١)

وزحفت قوات الجزائر العربية لملاقاة الغزاة المعتدين رغم ان اسطول الجزائر العسكري الضخم ، الذي كانت له الكلمة العليا في حوض البحر الابيض المتوسط ، كان قد تحطم مع الاسطولين المصري والعثماني في واقعة نافارين بمياه اليونان (٢) ومنذ تحطم هذا الاسطول اصبحت سواحل الجزائر مفتوحة في وجه الغزاة ، لذلك لم يتكبد الفرنسيون اية خسارة حين انزال قواتهم الى البر . وكانت الجزائر يومئذ تحت الحكم العثماني غير المباشر يحكمها وال تركي يدعى (الداي حسين) . ولكنها في الواقع كانت تتمتع باستقلال تام في ادارتها وشؤونها المختلفة . « ولقد ظن الداي ان نزول الفرنسيين في النقطة التي نزلوا فيها يسر له حصارهم وابادتهم ، وكان واثقا من قدرته على ذلك بما استطاع ان يجمعه من جموع فاقت بعددها جموع العدو كثيرا . ودارت رحى معركة عنيفة في التاسع عشر من حزيران سنة ١٨٣٠ كادت الدائرة تدور فيها على الفرنسيين فعلا ، غير ان تفوق القيادة الفرنسية على القيادة الجزائرية ضيع على الجزائريين فرصة الموقف الذي لم يلبث ان انقلب ضدهم ، فاستطاع الفرنسيون ان يستولوا على المعسكر وما فيه وان يحطموا خط الدفاع الاول ، وان يتقدموا نحو العاصمة ويحاصروا قلعتها ويضيقوا الخناق عليها بالرغم من المحاولات التي حاولها الجزائريون للكرة . ولقد دافعوا عن القلعة حتى نفد ما عندهم من عتاد وهلك القسم الاكبر من المدافعين ، وحينئذ اشعلوا النار في مخزن البارود فانفجر واندك البرج حتى لا يستولي عليه الفرنسيون سليما . ثم تحرج الموقف فطلب الاهلون من الداي مفاوضة الفرنسيين على الصلح فأبى هؤلاء الا الاستسلام المطلق ، لان الغزو لم تكن تهدف اليه حرب

(١) مبشر فرنسي (١٨٢٥ ـ ١٨٩٢) ، مازالت تماثيله تحتل ساحات المدن العربية في اقطار المغرب العربي خاصة في الجزائر . وهو يتحدى بصليبه شعور الملايين من ابناء المغرب ، ويرمز الى مدى الظلم والجبروت اللذين بلغ اليهما الاستعمار في ارضنا

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب « الجزائر العربية » الذي سينشره المؤلف قريبا .

(١) حول الحركة العربية ج ٢ ص ١٧٤

(٢) حدثت هذه المعركة البحرية سنة ١٨٢٧ وقد اتحدت فيها اساطيل فرنسا وبريطانيا وروسيا على اساطيل الدولة العثمانية وتوابعها يومئذ

بين دولتين ، وانما كانت تهدف الى سلب واستعمار » «١»

وهكذا احتل الفرنسيون العاصمة وتم تسليم المدينة لهم بعد ان عقدوا مع الوالي التركي معاهدة « كان من نصوصها : تخير الداي في مغادرة البلاد باموالہ او البقاء فيها تحت حراسة فرنسا والتعهد باحترام حرية الجزائريين الدينية والمدنية وعدم التعرض لاموالهم وتجارتهم وصناعاتهم وبالرغم من ذلك فان الفرنسيين لم يتورعوا حينما دخلوا العاصمة عن اعمال السلب والنهب وانتهاك الحرمات ، مما اضطر كثيرا من السكان الى مغادرة المدينة والفرار الى داخل البلاد ، ولقد وجد الفرنسيون في خزانة الدولة ومخازنها نحو خمسة وعشرين مليونا من الفرنكات ذهبا واربعة وعشرين مليونا فضة وما قيمته سبعة ملايين من السلع فاستولوا عليها غنيمة باردة ،

وقد غادر الداي بلاد الجزائر مع اسرته وحاشيته الى ايطاليا ومن هنا اخذ يتصل بانصاره للانقضاض على الغزاة وقام ببعض المحاولات اكثر من مرة ولكنه اخفق ، فنفض يده وانتقل الى الاسكندرية حيث استقر الى ان مات سنة ١٨٣٨ » (١)

وهكذا ترك المستعمرون الاتراك الشعب الجزائري يواجه وحده العدوان الفرنسي بعد ان استنزفوا دمه عشرات السنين وبعد ان تحطم اسطوله ومات الكثير من خيرة ابنائه وقواده في معركة نافارين السابقة الذكر وغيرها من المعارك التي خاضها انتصارا للعثمانيين ، ولكنه الاستعمار يفعل دائما مثل هذا الفعل ،

اما الفرنسيون فلم يخلدوا الى السكينة بطبيعة الحال، بل اخذوا في التوسع ، ولقد قاوم الشعب الجزائري في كل مكان الغزو الفرنسي ببسالة نادرة وشجاعة لا مثيل لها ،

(١) حول الحركة العربية ج ٢ ص ١٧٤ ـ ١٧٥

(١) المصدر السابق ص ١٧٥

ولست في موقف العرض التاريخي ، اذ ان بامكان أي واحد يريد معرفة تفاصيل هذه النكبة وآثارها ونتائجها ان يرجع الى عشرات المراجع والمؤلفات التي كتبت بمختلف اللغات في هذا الموضوع ،

ان الاعمال الوحشية والجرائم الفضيعة التي ارتكبها الفرنسيون خلال سنوات ثلاث من هذه الحملة لتقشعر منها الابدان ، وتثور لها الاعصاب ، وهاكم هذه الفقرات من تقرير رفعته لجنة فرنسية مؤلفة من اعضاء فرنسيين « عينهم ملك فرنسا عقب احتلال العاصمة الجزائرية اي في تموز ١٨٣٣ لتفقد الاحوال ولتنوير الحكومة في البلاد المفتوحة (جاء في التقرير) :

لو يقف الانسان لحظة متأملا الطريقة التي عامل بها الاحتلال سكان البلاد لرأى ان سيره لم يكن مخالفا للعدالة فقط بل كان يخالف العقل ايضا ، حيث اننا على حساب استسلام شريف وعلى حساب ابسط حقوق الشعوب الطبيعية قد تجاهلنا كل المصالح ، فلم نراع حرمة العادات والارواح ، واضفنا الى ملكية الدولة املاك المؤسسات الدينية وصادرنا املاك طبقة من السكان وعدناها باحترام حقوقها واستولينا بالظلم والضغط والجور على الاملاك الخاصة الشخصية دون اي مقابل ، ثم اجبرنا المالكين الذين جردناهم بتلك الطريقة على دفع نفقات تدمير منازلهم فيها بل نفقات تدمير مسجدهم ! ولقد ارسلنا الى ساحات التعذيب والتنكيل والاعدام لمجرد الشك رجالا لم تثبت ادانتهم ولم تجر محاكمتهم ، وقتلنا رجالا يحملون جوازات المرور ، وذبحنا جماعات من السكان بصورة اجماعية لمجرد الشك ثم ظهرت براءتهم وقدمنا للمحاكم رجالا مشهورين بسمعتهم الطيبة في البلاد لان شجاعتهم جعلتهم يأتون الينا ويقفون امام غطرستنا متوسلين لانقاذ مواطنيهم المساكين ، وقد وجد مناقضاة لم يتورعوا عن محاكمتهم ورجال لم يحجموا عن تنفيذ حكم الاعدام

فيهم . ولقد القينا في غياهب السجون الانفرادية المظلمة رؤساء القبائل بالرغم مما قدمته قبائلهم لنا من ملاجىء وتعلنه في الناس دون خجل او حياء . ان الاحرار منهم قد اعترفوا ولازالوا يعترفون حتى اليوم بان بلادنا كانت ولا تزال في مقدمة الاقطار المتحضرة بل التي قادت الشعوب الى الحضارة الحقة والعدل الانساني .

هو ذا « دي شاد » النائب الفرنسي الحر الذي « وقف في افريل عام ١٨٣٤ في مجلس النواب الفرنسي منددا بالاعمال الوحشية التي قام بها ابناء جلدته في عاصمة الجزائر ، واصفا ما كانت عليه هذه العاصمة من جمال وعمران، عارضا بعض ما شاهده بنفسه في هذه المدينة بقوله:

« لقد هدمنا في الجزائر تسعمائة بيت دون اتخاذ اي اجراء ودفع اي تعويض ، واستولينا على ستين مسجدا ، وهدمنا منها عشرة وحولنا بعضها الى كنائس ودسنا المقابر وبعثرنا الرفات في بلد شديد التمسك بدينه . ولقد كانت مدينة الجزائر قبل الاحتلال محاطة بالحدائق والقصور الجميلة الفخمة ، وكانت ضواحيها تماثل ضواحي مرسيليا في بهجة المناظر ، ولكن كل ذلك قد زال بعد ان اجتيحت حيث خربت سواقيها وقنواتها ودمرت البيوت والقصور ، واتخذت سقفها حطبا واقتلعت الاشجار وجعلت وقودا » (١)

وهكذا يعترفون هم قبل سواهم بجرائمهم واعمالهم الارهابية الخالية من معاني الرحمة والعطف الانساني ، لانهم لم يأتوا الى المغرب العربي الا لغرض القضاء على ابنائه وابادتهم جميعا ، ولتحويل ارض المغرب الى ارض فرنسية لا تفصلها عن فرنسا الا بضعة امتار من الماء !!

ولكن الشعب العربي في الجزائر قاوم بكل قواه الاحتلال الفرنسي ، وساعدته جارتاه تونس ومراكش بما تستطيعان ، وان كانت هذه المساعدة لم تجد شيئا فان الشعب الجزائري ظل يكافح وحده كل قوات الشر والعدوان الفرنسي ويجابه وحيدا اعنف وحشية وقسوة عرفتهما البشرية في تاريخها الطويل .

لست أريد - أيها السادة - ان اعيد الى اذهانكم قصة ذلك الكفاح النبيل الذي قام به بطل الجزائر العظيم الامير عبد القادر دفاعا عن سيادة الجزائر والشرف العربي فيها ولست اريد ان اعرض عليكم تفاصيل الجرائم والآثام التي اقترفها الفرنسيون في الارض الطيبة ارض الجزائر المنكوبة . لست اريد ذلك .. فانه يدمي القلوب ويثير الاشجان ، ولكني اعرض عليكم هذه الصورة الاخيرة وهي من اعترافات قائد فرنسي هو « الجنرال سان ارنود احد قواد الحملات الافرنسية كان يبعث لاخ له في فرنسا رسائل خلال سنتي ١٨٣٨ - ١٨٥١ احتوى بعضها مشاهد عديدة لما كان من تصرف هذه الحملات اثناء حروبهم مع الامير والمقاطعات التي لم ترد ان تضع رقابها تحت اقدام الغزاة ، وهي تدل على ان ذلك التصرف الوحشي الرهيب الذي وقع في مدينة الجزائر وضواحيها اثناء الحملة الاولى وعقبها قد ظل مستمرا في هذه الحملات بنفس الروح والهدف وهما الارهاب والسلب ، ودون ان يستشعر في ذلك باي عاطفة من عواطف الانسانية والعرف والرحمة والشرف ، فقد جاء في رسالة له بتاريخ ٧ مارس - آذار - ١٨٤١ بعد غزو مدينة قسنطينة ما ياتي : « ان الحرب لم تبق حيا لاننا لا نأسر اسرى . ولقد بدأ الجنود السلب ثم تبعهم فيه الضباط وانتهى اكبر سهم من المسلوبات والغنائم الى ايدي القائمين على الجيش وضباط قيادته العليا وهو ما يحدث دائما . اننا ندمر كل المدن ونجتاح كل املاك الامير . وسوف يجد الجيش الفرنسي في كل مكان وبيده اللهيب» .

وفي رسالة بتاريخ ٥ افريل ١٨٤٢ : نحن الآن في جهات مليانة وشرشال نحرق كل الخيام وكل القرى وندمر كل الثغور .. وفي رسالة في ٧ افريل ١٨٤٢ : ان بلاد بني نصر جميلة جدا وهي اغنى بلاد رأيتها في افريقيا الشمالية . لقد حرقناها كلها ودمرناها تدميرا .. وفي تاريخ ٥ مـي ١٨٤٢ : اننا قلما ندخل في معارك ، ونحن دائبون

(١) المصدر السابق ص ١٧٦ — ١٧٧

على نهب المساكن وتدميرها .. وفي رسالة بتاريخ ٥ اكتوبر ١٨٤٢ : ها انا محاط من كل الجهات بألسنة النيران التي اشعلتها في القرى والبيوت بعد تفريغ ما فيها من مخزونات . لقد جاء بعض اهلها طالبين الي الاستسلام فرفضت لاني اريد استسلاما شاملا وها انا ذا مستمر في التحريق . .. وفي رسالة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٨٤٢ : ذهبت الى حيمو واشعلت النار في كل مكان في طريقي وحرقت هذه القرية الجميلة . وكان الجنرال بيجو قد غادرنا قبل الى مثل مهمتي . وكانت النيران تشتعل فوق الجبال وكنت اشاهد ألوفا من الجثث المتراصة على بعضها وهي تلقى في النار . انها جثث بني نصر التي حرقنا قراها ومساكنها وفي بلاغ ارسله هذا الجنرال السفاح الى قائد فصيل له يقول : ان كل القبائل والسكان الذين لا يقبلون شروطنا يجب ان يسحقوا وان نستولي على كل اموالهم واملاكهم وان يبادوا دون تمييز بين ذكر وانثى بل يجب ان لاينبت النبات حيث وضع الجيش الفرنسي قدمه !! وفي احدى الرسائل التي ارسلها قائد هذا الفصيل الى جنراله : ان النساء والاطفال المختفين وراء الاشجار كانوا يستسلمون لنا ونحن نقتل ونذبح واصوات المحتضرين والمولولين تختلط باصوات الحيوانات التي تجأر بجانبهم .. وفي رسالة ثانية : اننا نبقي بعض النساء اللاتي نستولي عليهن ونبادل بعضهن بالخيول ونبيع بعضهن بالمزاد .!!

وفي كتاب صيد الانسان الذي نشره الكونت دي هسيون وردت مذكرة لضابط من ضباط الحملة جاء فيها :

« حملنا برميلا مملوءا بالاذان المصلومة من الاسرى وان عدد من قضينا عليه منهم برصاص البنادق وطعنات الحراب اكثر من ان يحصى .!

ولقد كان من الفضائع التي ارتكبت بأمر من الجنرال روفو ابادة قبيلتي شميلة واولاد ريا خنقا بالدخان بالرغم من اعلانهما الرغبة في الاستسلام !» (١)

ألا قولوا بربكم اي شعب في الارض نكب بمثل هذا ؟ وايهما افظع يا ترى : هذه الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون واعترفوا بها ام تلك التي ارتكبها النازيون خلال الحرب العالمية الاخيرة في اوربا فملأ الحلفاء ارجاء الارض حقدا عليهم ولعنا لهم ؟

تعالوا معي الآن نطوي السنين طيا ونمر بها دون عرض لما احتوته ايامها من شر مستطير وجرائم لا عد لها . فاذا وصلنا الى شهر ماي سنة ١٨٧١ فاني استوقفكم قليلا لنمجد جميعا بطولة الحاج محمد المقراني هذا المناضل الجبار الذي استشهد يوم ٥ ماي من هذه السنة ، بعد ان قاد ثورة كاسحة ضد الاستعمار الفرنسي ، فخلفه في قيادة الثائرين عمه الشيخ ابو مزراق .

ان هذه الثورة قد جاءت مثل عشرات الثورات السابقة واللاحقة كرد فعل عما ارتكبه الاستعمار من اضطهاد وتنكيل بالشعب العربي في الجزائر ، ولما يفرضه من ميز عنصري في سياسة العباد وادارة شؤون البلاد . فعندما « سقطت الامبراطورية سنة ١٨٧٠ واعلنت الجمهورية الثالثة تقدم قامبيتا رب الجمهوريين والاههم المعبود بعملين خطيرين جدد بهما استعباد الشعب الجزائري ، ذلك الاستعباد الذي لا يزال الجزائريون يرزحون فيه الى الآن: الاول قانون كريمو (وزير العدل اليهودي في حكومة قامبيتا) وهو القانون الذي منحت فرنسا بموجبه يهود الجزائر صفة المواطن الفرنسي لتكثير سواد الفرنسيين في هذه البلاد ، والثاني اصدار عدة مراسيم استثنائية ضدا على المسلمين الجزائريين ابعدهم بمقتضاها عن دائرة الحق العام، وجعلهم تحت التصرف المطلق لحاكم الجزائر العام وادارته وبموجب ذلك اصبح للادارة الحق في اعتقال كل جزائري يشك في ولائه للسيادة الفرنسية وكذلك طرده من البلاد وحجز اموال ومصادرة املاكه . وقد اوغل قامبيتا في

(١) نفس المصدر ص ١٧٩ — ١٨٠

هذا الاستثناء فمنع حكومة باريس والبرلمان الفرنسي من حق التدخل في اعمال الولاية العامة الراجعة لاضطهاد الاهالي من اجل توطيد دعائم الحكم الفرنسي في الجزائر.

ولكن الشعب الجزائري لم يقف ازاء هذا التصرف الجائر مكتوف الايدي بل اندفع يعلن غضبه المطلق على السلطة الفرنسية وتدخلها في الشؤون الدينية للمسلمين واتخاذها سياسة التفرقة المبنية على الميز العنصري والاضطهاد الديني ، فاندلعت ثورة كبيرة شملت كل بلاد زواوة ومقاطعتي قسنطينة والجزائر وكان يتزعمها الحاج محمد المقراني والشيخ محمد الحداد ،

استمرت هذه الثورة الخطيرة ستة اشهر كاملة كلفت العرب ستين الف شهيد وكلفت الفرنسيين عشرين الف قتيل ولم تخمد الا عندما اسرع بسمارك باطلاق سراح الجيش الفرنسي الذي كان معتقلا في المانيا بعد حرب السبعين فقام هذا الجيش بالتنكيل بالثائرين وقد استشهد الحاج محمد المقراني يوم ٥ ماي وخلفه من بعده عمه الشيخ ابومزراق

وليس من الممكن لنا ان نصور في هذه العجالة مقدار الفظائع التي ارتكبها الجيش الفرنسي في قمع هذه الثورة ولكن يمكن لنا ان نحيل من يريد الاطلاع الى كتاب السيد اوجين رين الذي سماه « الاخوانية » فانه يجد فيه من صور الوحشية ما يثير الاحساس ويهيج النفوس ،

بعد ان استسلم الثوار حكم على ستة آلاف منهم بالاعدام واقصي ابو مزراق والشيخ الحداد وابناه محمد وعزيز الى جزيرة كلدونيا الجديدة في المحيط الهادي ومعهم خمسمائة من اعيان الثوار واستمروا في هذا المنفى القصي الى ان ماتوا جميعا ، اما الجزائر نفسها فقد حكم عليها بغرامة قدرها ستة وثلاثون مليونا من فرنك ذلك الوقت ولما عجزت القبائل عن دفعها قرروا مصادرة املاكهم واجلاءهم عنها واحلال مهاجري الالزاس واللورين الذين اختاروا الحكم الفرنسي فيها ،

وبرغم نجاح الفرنسيين في اخماد هذه الثورة الجهنمية فقد كان لها اثرها البعيد في نفوس الجزائريين عامة وسرعان ما اعقبتها ثورة كبيرة في مقاطعة وهران تزعمها الباشا اغا سليمان بن حمزة قائد اولاد سيدي الشيخ استمرت خمسة سنوات كاملة بدون انقطاع ، واستشهد اثناءها الباشا المذكور بعد ما قتل بيده الجنرال بوبيرميتي المعروف بجلاد «زواوة» وفي سنة ١٨٨٢ قامت ثورة قبائل المهرانية بزعامة الشيخ بحي عمامة المراكشي واستمرت الى سنة ١٨٨٥ » (١)

احتلال تونس

اما وقد وصلنا في تعقيبنا لسني القرن التاسع عشر الى بداية العقد التاسع منه فلنقف قليلا بخشوع ولنردد القول المأثور : (انما اكلت يوم اكل الثور الابيض) ، فها نحن الآن امام مأساة فظيعة اخرى امام نكبة جديدة حلت بالمغرب العربي بحلول شهر ماي من سنة ١٨٨١ ففي هذا الشهر اجهز الاستعمار الفرنسي على الشعب التونسي هذا الشعب الصغير المساحة القليل العدد ،

لقد كان الشعب التونسي يتحفز لنهضة كبيرة شاملة بل انه خطا فيها خطوات واسعة فعلا ، فتمتع بالنظام الدستوري في سنة ١٨٥٨ اي قبل ان يتمتع بهذا الحق اي بلد عربي او اسلامي آخر ، وانشأ المعاهد العلمية والكليات والمحاكم المدنية الحديثة وضبط شؤونه الداخلية والخارجية باساليب عصرية ، واخذ ينهض بكل قواه بعد ان استطاع ملوكه التحرر من نفوذ الرجل المريض والافلات من سيطرة من كان يدعى « ظل الله في الارض » ، وطفق المخلصون يعملون لخير شعبهم ورفاهيته وتقدمه ،

ولكن الاستعمار لم يكن لينتظر كل هذه الجهود حتى تثمر وتاتي بنتائجها التي لن تكون الا سدا منيعا يحول

(١) الحركات الاستقلالية ص ٩ — ١٠

دون اي عدوان خارجي او غزو اجنبي .

في هذا الشهر - ايها الاخوان - حلت النكبة الكبرى الثانية باخوانكم العرب الافارقة . فقد نظم الاعداء حملة عسكرية على تونس من البر والبحر قوامها ثلاثون الف مقاتل عدا مئات السفن الحربية والتجارية التي هاجمت السواحل الشمالية لتونس وانزلت قواتها في ميناء بنزرت واحتلت المدينة واخذت في الزحف من هناك ومن حدود الجزائر على العاصمة التونسية حيث استطاعت الوصول الى ضواحي العاصمة في الثاني عشر من ماي سنة ١٨٨١ وفي الحال طوقت قوات الجنرال بريار قصر الملك محمد الصادق في ضاحية باردو ، ودخل الجنرال بريار على الملك شاهرا سلاحه وقدم اليه نص معاهدة عرفت فيما بعد باسم معاهدة باردو ، وطلب منه توقيعها في الحال والا فعليه ان يتحمل كل النتائج ، فطلب الملك مهلة اربع وعشرين ساعة لعرض الامر على وزرائه والمجلس الاعلى - المجلس النيابي - فرفض الجنرال واشتد في التهديد فوقع الملك مكرها المعاهدة بعد مشاورة مع بعض اخصائه الحاضرين في القصر دامت ساعتين .

لقد وقع الملك المعاهدة تحت ازيز الرصاص وتهديد الحراب ، ومع ذلك فان هذه المعاهدة التي لم يعترف بها الشعب في يوم من الايام ، لا تعطي للفرنسيين حق الحكم المباشر ولا حق الاحتلال الطويل او المؤبد ، فقد نص فيها على ان الاحتلال جزئي ومؤقت يزول عند اتفاق السلطتين العسكريتين - التونسية والفرنسية - على ذلك ، ولكن اية قيمة لهذه النصوص اذا كانت فرنسا قد قضت نهائيا على الطرف العسكري المقابل بقضائها على الجيش الوطني التونسي ، وانفرادها وحدها بالحقوق والشؤون العسكرية لتونس ؟

اية فائدة من مثل هذه النصوص والحق التونسي تعوزه القوة ، اما العدوان والاحتلال الفرنسي فتسانده الطائرات والدبابات والبوارج الماخرات ؟

اية فائدة من هذه النصوص وقد عمل الفرنسيون ولا يزالون يعملون على خرقها وعدم احترامها والتقيد بشيء منها ؟

« وليس من قصدنا هنا » ان نتعرض لمختلف المراحل الديبلوماسية التي اجتازتها القضية التونسية فذلك موضوع آخر يحتاج لدراسة وتفصيل ، وانما الذي يهمنا ان نشير اليه هو ان توقيع عقد الحماية - اي معاهدة باردو - لم يتم الا بعد ان استمرت تونس تدافع عن نفسها ضدا على محاولات فرنسا والدول الاخرى مدة خمسين سنة كاملة ، وهذا يعني ان تونس كمراكش لم تقبل الحماية قط ، وانما حاولت بكل ما تملكه من جهد ان تحتفظ باستقلالها وان تعمل على توطيد اواصر الصداقة مع جيرانها » (١)

اجل ! - ايها السيدات والسادة - « لقد نصت هذه المعاهدة على حق فرنسا باحتلال الاماكن التي ترى احتلالها ضروريا لحفظ الامن وتأمين الحدود ، على ان ينتهي الاحتلال حينما تتفق السلطتان الحربيتان التونسية والفرنسية على قدرة الحكومة الوطنية على تأمين الامن ، وتعهدت فرنسا فيها بتنفيذ المعاهدات النافذة بين تونس والدول الاخرى وتمثيل تونس ورعاية مصالح رعاياها في البلاد الاجنبية من قبل ممثليها وقناصلها ، وحماية القطر التونسي واعضاء العائلة المالكة من كل عدوان خارجي او داخلي - وسنرى فيما بعد كيف احترمت فرنسا هذه النصوص - وتعهد الملك بعدم ابرام اي عقد ذي صبغة عامة مع دولة اخرى

---

(١) الحركات الاستقلالية ص ٤١

دون علم فرنسا وموافقتها .

ولم تكتف فرنسا بما فرضته في هذه المعاهدة من شروط ونصوص تنطوي على القضاء على سيادة تونس ، بل اجبرت الملك في نفس السنة على اصدار مرسوم باعتبار المقيم الفرنسي العام الذي يمثل فرنسا في تونس وزيرا للخارجية التونسية ، كما اجبرت بعده بسنتين الملك علي باي على توقيع معاهدة اخرى ـ معاهدة المرسى ـ نصت على الاعتراف بحماية فرنسا والتعهد بالقيام بالاصلاحات الادارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة الفرنسية فائدة لها ، وخطت بعد سنة اخرى خطوة خطيرة حيث ذهبت الى تأويل المعاهدتين تأويلا لا يتسق مع النصوص ، وعمدت الى التصرف بالامور تصرف الدولة تجاه ولاية من ولاياتها ، فصدر رئس الجمهورية مرسوما يمنح المقيم الفرنسي العام نيابة عن الحكومة الفرنسية حق المصادقة على ما يصدره الباي من اوامر ومراسيم ، وعدم نفاذ اي شيء يصدره من دون موافقة المقيم العام ، وهكذا حلت فرنسا محل الدولة التونسية واتاحت لنفسها حكم البلاد حكما مباشرا وجعلت مقيمها الحاكم الاعلى والآمر المستبد فيها بغيا وعدوانا وبقوة الحديد والنار » (١)

ولكن الشعب التونسي لم يخلد الى السكينة ولم يخضع للواقع المفروض والاوضاع الذليلة بل قاومها جميعا وثار عليها كلها « منذ ان وطأت اقدام القوات الفرنسية اراضي بلاده وازداد هياجه عنفا مذ علم ان الملك اجبر على ما وقعه اجبارا ، فنشبت الثورة وعمت جميع البلاد ، وحينئذ اخذت النجدات تتوارد واخذت السلطات الفرنسية تشتد في القمع والتنكيل ، وكانت معارك طاحنة اشتهرت فيها القيروان وسوسة وقابس والقلعة الصغيرة وزغوان وتستور وصفاقس خاصة بمقاومتها الضارية وبسالتها وضحاياها ، وقد حوصرت الاخيرة حصارا شديد برا وبحرا ودمرت تدميرا .

ومع ان القوة غلبت الحق في هذه المعارك التي انعدم فيها التكافؤ فقد ظلت المنطقة الجنوبية خاصة تقاوم القوة الغاشمة بزعامة قائدها الكبير علي بن خليفة نحو ثلاثين عاما اي الى سنة ١٩١٠ كما ان الشعب التونسي ظل يعلن رفض الحماية التي فرضت عليه بالقوة ويقاومها بكل وسيلة استطاع اليها سبيلا من ثورات واحتجاجات وحركات وطنية ومواقف تمردية ومؤتمرات قومية ، ولم يدع فرصة تمر دون ان ينتهزها في اعلان ارادته وتأكيد رفضه والسعي للتخلص من النير الذي وضع في رقبته بغيا وطمعا واستنادا الى تفوق القوة ، بالرغم مما عمدت اليه فرنسا وظلت تمارسه من القمع والتنكيل والدس والتفريق والاضطهاد والارهاق والتشريد في سبيل اخضاع هذا الشعب العربي الابي » (١)

ولماذا لا نصارحكم بالحقيقة المؤلمة ، وهي ان مالقيته تونس من اضطهاد الفرنسيين وتنكيلهم لم يكن اقل أو اخف مما لقيته اختها المنكوبة من قبل الجزائر الحزينة .

الظهير البربري

كلكم يعلم ان الاستعمار الفرنسي لم ينته امتداده من الجزائر عند تونس ، بل امتد ايضا من الغرب فاكتسح مراكش في مارس سنة ١٩١٢ .

ولمراكش ـ ايها السادة ـ قصة طويلة دامية ، ساحدثكم عنها في مناسبة اخرى . غير اني استخلص لكم الآن حادثة

(١) حول الحركة العربية ج ٢ ص ٢٠٩

(١) حول الحركة العربية ص ٢٠٩ ـ ٢١٠

خطيرة واحدة ، من سجل العدوان الفرنسي في مراكش ، وهي واضحة القصد بينة الغاية كمثيلاتها من الحوادث الاخرى التي لجأ اليها الاستعمار من قبل في الجزائر وفي تونس ، ولا يزال لها حتى اليوم امتداد في القوانين ونظم الحكم وسياسة البلاد المختلفة .

والذي علمتموه حتى الان من خلال هذا الحديث

استعمر في هذا العصر - ولا يسخران العلم والقوة وكافة الوسائل البشرية الاخرى في سبيل هذين الهدفين . كما يفعل كل استعمار آخر - . كلا .. وانما يهدفان اولا وقبل كل شيء الى تحويل بلاد المغرب من ارض عربية الى ارض فرنسية واسبانية ، ولن يكون ذلك ما دام في سكان هذه الارض عربي واحد ، ولن يكون ذلك ما دام هذا العربي على قيد الحياة . (١)

من هذه الحقيقة الصارخة التي برهن عليها عرب المغرب اكثر من مرة في تاريخ كفاحهم الطويل ، ادرك الاستعماران الفرنسي والاسباني انه لا وسيلة لتحقيق هدفهما هذا ، الا بابادة سكان المغرب العربي والخلاص منهم نهائيا ، ولكن كيف السبيل الى ذلك وهم يعدون بالملايين ولهم مراس صعب وجموح غريب واباء لا مثيل له؟

لقد فكر الاسبان والفرنسيون في مثل هذه الحقائق من قرون بعيدة ، اذ لدينا من الوثائق والبراهين ما يثبت ذلك ، ونحن نعتبر ازمنة التاريخ البشري المدونة ، عهود كفاح وصراع بين ابناء المغرب ودول الجنوب الاوربي ، فمن عهد قرطاجنة وروما ومن عهد طارق بن زياد فاتح اسبانيا ومن عهد الاغالبة فاتحي صقلية وجنوب ايطاليا ومن نكبة العرب في الاندلس الى اليوم والصراع قائم بين دول المغرب العربي وبين كافة الدول التي تعاقبت في اسبانيا

وايطاليا وفرنسا ، واذن فان هؤلاء اللاتينيين ليسوا حديثي عهد بالعدوان علينا او التفكير في ذلك ، ورسم الخطط ووضع المناهج واعداد الوسائل ، بل هم عريقون في فكرة العدوان وقديمو العهد في الصراع معنا ، وهم يحملون منذ العصور السحيقة عقيدة آثمة هي ان ارض المغرب ارض لاتينية او رومانية وهم يحاولون اليوم، كما حاولوا ذلك عدة مرات من قبل ، ان يحققوا هذا الحلم الذهبي .

ولعل في خطب الدوتشي او « السنيور موسوليني » التي كان يلقيها من شرفة قصر البندقية ايام طغيان الفاشيست في ايطاليا وليبيا والحبشة والبانيا ، والتي كان يلهب بها اعصاب الشعب الايطالي ، معلنا ان حوض البحر الابيض المتوسط بحيرة رومانية ، داعيا الشعب الايطالي الى اعادة مجد روما وامبراطوريتها القديمة .. ليصرفه بهذا عن التفكير في دكتاتورية الحكم وضياع مئات الملايين في التسلح والاستعداد للحرب والعدوان ، والتنكيل بالشعوب الصغيرة التي كانت منكوبة يومئذ بالاستعمار الايطالي ، بدل صرف هذه الملايين في شؤون الشعب الداخلية ... لعل في ذلك برهانا آخر يضاف الى آلاف البراهين والوثائق التي تزخر بها المكتبات وسجلات الدول الاستعمارية حتى اليوم .

لقد كانت القاعدة الاولى في سياسة الاستعمار الحديث في كل مكان هي فرق تسد ، وهي كما يعلم الجميع « حكمة » قديمة جدا ، ابتكرتها عقلية الرومان (الجبارة) ، ولا تزال حتى اليوم تعيش في سياسة الدول الكبيرة ذات المصالح الاستعمارية .

وهذه القاعدة التي طبقتها بعض الدول الاستعمارية بنجاح - مع الاسف - في بعض الاقطار الشرقية ، هي التي حاول الاسبان والفرنسيون تطبيقها في المغرب العربي باساليب مختلفة ، ولكنهم صدموا بتلك الحقائق السالفة التي اثبتها ابناء المغرب وبتلك الصفات المثلى التي يتصفون بها ، وهي جميعا

---

(١) انظر تفصيل سياسة الفرنسة والادماج في كتاب « حصاد الكفاح » للمؤلف وسينشر قريبا

لا تدع سبيلا للنجاح لمثل هذه الحكم (العريقة) ، ضف الى ذلك ان طبيعة الحياة وواقعها الراهن في المغرب لا يساعدان على النجاح باي حال من الاحوال ، فسكان المغرب شعب واحد ، يتكلم لغة واحدة هي العربية ، ويدين بدين واحد هو الاسلام ، ويتمسك بمذهب ديني واحد هو مذهب مالك، ويعيش في حياة وظروف وبيئة واحدة ، ويشعر بولاء لكيان ومبدإ واحد ، فهل من السهولة واليسر تفريق هذا الشعب بالصورة التي يستطاع بها ابادته والقضاء عليه ؟

والفرنسيون يدركون هذه الحقائق القاسية اكثر من سواهم ، لذلك اتجهوا في محاولة تفريق ابناء المغرب اتجاهات خاصة ، علما بانهم لا يفرقون الشعب ليسودوا فحسب بل ليسهل عليهم ابادته فريقا بعد فريق ، وفي هذه الحقيقة الاخيرة وحدها ما يكفي لكي يظلوا في سياستهم المفرقة حيث بدؤا رغم بعض الخطوات والاعمال الفاشلة التي استطاعوا القيام بها ولا يزالون مستمرين في متابعتها بعناد الحمقى والمغرورين .

ولنعد الى الحديث عن تلك الحادثة الخطيرة التي اردنا ان نستخلصها لكم من قصة مراكش الدامية ، والتي سقنا لها هذا الحديث لنتبين في ضوئه بعد قليل كثيرا من الحقائق المرة .

ولست اتحدث عن هذه الحادثة لخطورتها وجسامتها فقط ، بل ولانها حدثت في هذا الشهر المشؤوم - شهر ماي - الذي نستهدف استخلاص حوادثه في هذا المجال وجعلها موضوعا واحدا في هذا الحديث .

ففي السادس عشر من ماي سنة ١٩٣٠ صدر الظهير البربري - اي المرسوم او الارادة الملكية - الذي يقضي بمعاملة البربر معاملة خاصة وجعلهم متميزين في شؤونهم المدنية والاحوال الشخصية عن العرب ، اي بتقسيم مراكش الى شعبين ، شعب عربي وآخر بربري ، وفي المرسوم نصوص تتيح لفرنسا ان تمضي في سياسة التقسيم هذه الى ابعد مدى ، وليست الخطورة في صدور هذا الظهير - الذي كانت اكثر نصوصه ذات غموض مقصود ، لكي يتاح لهم فيما بعد شرحها وتأويلها وتطبيقها كما يريدون - ليست الخطورة في هذا الظهير لذاته وانما في انه جاء بمثابة اعلان صريح ومحاولة جديدة ذات طابع خاص لسياسة فرنسا (التمدينية) التي من اجلها اعلنت حمايتها على مراكش!

والواقع ان الظهير البربري جاء كنتيجة منطقية لكل المقدمات التي بذلت قبله ، كما انه يعتبر متمما لها ومستثمرا لفوائدها في وقت واحد .

وليست هذه السياسة العنصرية التي اعلنها الظهير البربري جديدة في طرق الفرنسيين الاستعمارية ، فقد سبق لهم ان حاولوها من قبل في الجزائر منذ القرن التاسع عشر ، ففي سنة ١٨٥٩ انشأت فرنسا في الجزائر ما تسميه بمحاكم الجماعة بين القبائل والعشائر البدوية ، (وهي محاكم تستمد احكامها من العرف البربري القديم بدلا من الشريعة الاسلامية) ، وقد ظنت فرنسا انها بهذا العمل تمهد السبيل الى نفسها لاخراج البربر من دائرة الاسلام ، وتعبد الطريق امام (الاباء والاخوات البيض) لتنصيرهم وفرنستهم ، ولكنهم كانوا اصعب مراسا واقوى ايمانا واعز اسلاما من ان تغريهم او تغرهم هذه الاساليب الشيطانية ، فثاروا على هؤلاء المفرقين ثورات عديدة كاسحة كانت اشدها هولا ورعبا ثورتهم العاتية سنة ١٨٧١

ولكن فرنسا لا تتعظ بكل هذه الدروس ، ولا تستقيم في سياستها الاستعماريه ، بل تأبى الا الاستمرار في العدوان والمحاولات الفاشلة ، فتنشيء في مراكش سنة ١٩١٣ معهد اللهجات البربرية لدراسة اصولها وكلماتها تمهيدا لبعثها لغة في التعليم والكتابة ، وفي ١٩١٥ كون الفرنسيون لجنة الابحاث البربرية ، (وكان الغرض من تاليفها تقديم المعلومات الضرورية والدراسات اللازمة الى الاقامة العامة لتستعين بها في وضع قواعد ثابتة لسياستها الجديدة ، كما

تالفت الى جانب ذلك لجنة خاصة لدراسة الاعراف وجمعها وقد اعيد انشاء محاكم الجماعة في مراكش بحيث لا نكاد نصل الى سنة ١٩٢٤ حتى نجد ان عددها قد وصل الى الثمانين محكمة ، لكل واحدة منها سكرتير فرنسي هو في الواقع رئيسها) (١) ويمضي الاستعمار بعد ذلك في متابعة سياسته البربرية ، فيوجه عنايته مرة اخرى باللهجات البربرية بغية درسها وتوحيدها في لغة واحدة لاحيائها وتدوينها ووضع نحولها ، والاهتمام بآدابها وقصصها وامثالها واساطيرها ، كل هذه الاعمال كانت ـ في حقيقتها ـ بمثابة مقدمات لاعلان ذلك القانون الاستعماري ـ الظهير البربري ـ الذي كان يهدف الى تقسيم سكان مراكش الى شعبين ـ عرب وبربر ـ ونشر العداوة العنصرية والبغضاء بينهم ، ليصبحوا اعداءا متحاربين بعد ان كانوا اخوانا متعاونين على تحرير بلادهم وطرد الاستعمار عنها ، فكان صدور الظهير بمثابة الفتيل الذي اشعل نار الثورة بين جميع السكان في مراكش ، وكان في مقدمة الثائرين البربر انفسهم ، لقد كتب احد الفرنسيين مرة محرضا فرنسا على تنصير عرب المغرب ، وابعادهم عن دينهم الاسلامي ، لتسهيل ادماجهم وفرنستهم قائلا (.. ان الفرنسة لا يمكن ان تكون الا عن طريق التمسيح ، ولكن من ذا الذي يستطيع ان يواجه المسلمين بالدعوة للخروج عن دينهم ؟) ومع ذلك فقد واجهونا بكل وقاحة بالدعوة للخروج عن ديننا ، اذ كانت لهم ولا تزال كثير من المشاريع والمنشآت التبشيرية في كافة اقطار المغرب العربي تعمل جاهدة لتنصير من يمكن تنصيره من العرب ، وقد استخدموا في سبيل هذا الهدف كل الوسائل وجربوا كل الاساليب فمن اغراء وتغرير الى ارهاب وقمع ومن تشاريع ظالمة الى اعمال يطبعونها بالطابع الانساني وهي ابعد ما تكون عن المعاني الانسانية ، هذا اولا ، احدهم يقدم اطروحة لينال بها

(١) هذه مراكش

شهادة علمية عن « عمل فرنسا بالمغرب فيما يخص التعليم» فينصح بني قومه بما يلي « من الخطر ان تترك كتلة ملتحمة من المغاربة تكون ولغتها واحدة ، وانظمتها واحدة ، لابد ان نستعمل لفائدتنا العبارة القديمة (فرق تسد) ان وجود العنصر البربري هو آلة مفيدة لموازنة العنصر العربي ، ويمكننا ان نستعمله ضد المخزن ـ الحكومة المراكشية ـ نفسه » (١) لقد كان هذا اسلوبا علميا في نظر المستعمرين ، والكاتب لم يستطع ان يتحرر من استعماريته حتى في مثل هذا الموقف العلمي ، فماذا يكون موقف غيره من الكتاب في الكتابات الاخرى ؟ وهاكم ثانيا ، المسيو جلاي احد موظفي الاقامة العامة بمراكش فقد كتب في مقال له بعنوان «المدرسة الفرنسية لدى البربر» ما يأتي : « يجب ان نحذف تعليم الديانة الاسلامية واللغة العربية في مدارس البربر ، وان تكتب اللهجات البربرية بحروف لاتينية ، وختم مقاله بقوله : « يجب ان نعلم البربر كل شيء ما عدا لا اسلام » .

ولكن المسيو جلاي « هذا » يجهل او يتجاهل حقيقة صارخة يعرفها العالم كله عن العرب الافارقة ، ويعرفها الفرنسيون والاسبان معرفة جيدة ، وهي ان العرب في المغرب يمكنهم ان يتخلوا عن كل شيء يملكونه ما عدا الاسلام والعروبة ، هذان المقومان اللذان هما مصدر القوة في كفاحنا التحريري ، ومنبع الايمان بحقنا في الحرية والاستقلال .

المؤتمر الصليبي

في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون بمراكش يهيئون الجو لاعلان الظهير البربري كانوا في تونس يهيئون انفسهم لعمل مماثل ، وان اختلف عنه في الاسم والاسلوب

(١) الحركات الاستقلالية ص ١٦٢

فهو يهدف مثله لغاية واحدة هي محاربة العروبة والاسلام في المغرب العربي بكل وسيلة .

ففي هذا الشهر نفسه - اي ماي ١٩٣٠ - عقدبتونس المؤتمر الافخارستي ودام عقده بقرطاجنة ثلاثة ايام،وضم ممثلين عن البابا وعن الكنائس الكاثوليكية في فرنسا وايطاليا والمانيا واسبانيا وغيرها من الاقطار الاروبية . كذلك كان فيه ممثلون عن الكنائس الكاثوليكيةفي افريقيا وبلغ عدد الذين اشتركوا فيه من رجال الكنيسة اكثر وانه استمرار للعهد الذي قطعه لـويس التاسـع للعمل والجهاد من اجل اعادة افريقية الى المسيحية . (٢)

وقد اعد المؤتمر اعـدادا خاصـا ، يدل على ذلـك تخصيص مليونين من الفرنكات لمنفعته،فضلا عن المساعدات الاخرى . وقد اختير زمانه بحيث يصادف مرور خمسين عاما على احتلال الفرنسيين لتونس . وكانـوا يهيئون المهرجانات والمناهج للاحتفال بهذه المناسبة ، وقـرروا ان يصبغوا هذا الاحتفال بصبغة المسيحية ، وان يسجـل فيه حادث تاريخي يتصل بغاياتهم الهدامة . فكان هذا المؤتمر ثمرة هذا التفكير الاهوج ونتيجة لتصرفاتهم الرعنـاء .

وما ان حلت الايام الاولى من شهر ماي سنة ١٩٣٠

حتى (بدأ المسلمون في تونس يشاهدون جماعات كثيفة من الرهبان تتجول في الشوارع على شكل لم يشاهدوه من قبل ، وتعقبهم في المسير صفوف متراصة من فرق كشافة « الصليب » ذكورا واناثا ، وهي تـرتدي ملابس جنود الحروب الصليبية ، اي قمصان بيضاء عليها صليب احمر من امام وآخر من خلف ، وقد التفت ارجلهم بخرق بيضاء مشدودة الى بعضها بخيوط ، وغطاء الرأس ابيض شد بشبه عقال عربي وبايدي بعضهم عصي الكشافة واعلام الكنيسة . وهم ينشدون الاناشيد الكنائسية بين حين و آخر ويترنمون بالدعاء لادخال هذه البلاد في حظيرة النصرانية التي كانت عليها قبل الاسلام !. ولم تزد الاحتفالات على ثلاثة ايـام - بسبب الصدمة التي لاقوها من غضب الرأي العام وانتفاضة الشعب التونسي - وقد جعل نائب البابا يوما منها للاعتراف والثاني للغفران والثالث للتبريك والقيت الخطب العديدة من كبار رجال الكنيسة في هذه الايام الثلاثة ، ووضعت لسماعها آلات تكبير الصوت ، واستقبل المقيم العام نائب البابا وجمعا من الاساقفة والكرادلة ، كما اقام لهم مأدبة تكريم . ولم يقتصر في هذه الحفلات على الدعاية الدينية ، بل كان هناك شيء من الدعاية السياسية ايضا . فالرهبان الايطاليون يتحدثون الى المسلمين بان هؤلاء - اي المسلمين - يرجعون الى ارومة رومانية وان في سحنة وجوههم دليلا قاطعا على صحة هذا الزعم ، وان العرب لم يغيروا شيئا غير اللباس والمعتقد ، اللذين يسهل تركهما - كذا - واعتناق مجد روما من جديد ! وكذلك كان عمل الاسبان والالمان وغيرهم من ممثلي الطوائف الاخرى «١»

وقد كان لهذا المؤتمر رد فعل عنيف لـدى الصحافة والشعب التونسي والهيئات الوطنية المختلفة ، اذ قوبل باضراب الشعب التونسي باجمعه وبمظاهراته الصاخبة واحتجاجاته العنيفة فكانت النتيجة فشل المؤتمر واندحار اهدافه . ولم يكن هذا الظفر الذي نالته الحركات الوطنية ضد هذه السياسة الاستعمارية المبطنة بالمسيحية ليتم دون ضحايا وثمن غال . فقد ذهب عدد كثير من الشباب الى السجون وعطلت بعض الصحف الوطنية وتعرض كثير من القادة الى الارهاب والاضطهاد .

(١) قاد الحملة الصليبية الثامنة ملك فرنسي يدعى « لـويس التاسع » وقد لقي حتفه فيها ٦٦٨ - ٦٦٩هـ و ١٢٧٠م

(٢) هذه اكذوبة فرنسية ، فافريقية لم تكن يوما ما مسيحية .

«١» ملخص بتصرف بسيط من كتاب ظاهرة مريبة .

الملك الشهيد

لاشك ان حضرات السيدات والسادة يذكرون جيدا محاولة الجنرال جوان في المدة الاخيرة (١) خلع ملك مراكش (٢) لموقفه الصلب ضد الجنرال المذكور وسياسته الاستعمارية ، ولمناصرة جلالته للحركات التحريرية التي يقودها حزب الاستقلال المراكشي .

وليست محاولة الجنرال جوان الا امتدادا لعمل عدواني سابق قام به هذا الجنرال في تونس سنة ١٩٤٣ بمعية فئة من الجنرالات الفرنسيين .

لقد حاول الجنرال جوان في حوادث مراكش الاخيرة استخدام معلوماته العسكرية ضد الشعب العربي هناك ، هذه المعلومات التي استخدمها من قبل في اضطهاد الملك الشهيد محمد المنصف ، وفي التنكيل بالشعب التونسي اثر هزيمة المحور في تونس سنة ١٩٤٣ .

والغريب في الامر ، ان هؤلاء الجنرالات لم يعرفوا كيف يستخدمون معلوماتهم العسكرية هذه ، وبراعتهم في فنون التنكيل والبطش .. لرد الغزو النازي عن شعبهم يوم اكتسح الغزاة النازيون بلادهم خلال اسبوعين فقط ، ولكن هؤلاء الجنرالات مهرة واذكياء في استخدام هذه المعلومات والبراعة ضد شعوب المستعمرات ، التي لا تملك من السلاح سوى قوة ايمانها بحقها في الحرية والحياة .

لقد سبق ان اشرت عند الحديث عن معاهدة باردو ، الى ان فرنسا لم تحترم اي بند من بنودها ، ولم تتقيد بنص واحد منها . وليس ادل على ذلك من فرار قواتها وجنرالاتها دون قتال يوم نزول الالمان في تونس عقب نزول الحلفاء في سواحل مراكش اي في نوفمبر سنة ١٩٤٢ . فقد جاء في البند الثالث من هذه المعاهدة (١) ما نصه : (تتعهد دولة الجمهورية الفرنسية ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباي وحمايته من كل خطر يمكن ان يهدد ذاته او عائلته او يعبث بأمن مملكته) (٢) . ان هذا النص صريح في ان فرنسا مسؤولة عن حماية العرش والمملكة التونسية من كل عدوان خارجي او داخلي ، وهي بذلك مجبورة للدفاع عن القطر التونسي وعن العائلة المالكة ضد كل خطر يتهددهما .

والواقع ان الخطر الذي نخشاه دائما هو فرنسا نفسها ، والعدوان الذي نتوقعه باستمرار هو قائم في بلادنا ممعن في اضطهادنا والتنكيل بنا ، وقد تجاوز افراد الشعب العاديين والاحرار الوطنيين ومد يده الى المخلصين من امراء البيت المالك والملوك الجالسين على عرش البلاد .

ونحن لا يمكننا ان ننسى مطلقا كيف مات المغفور له محمد الناصر باشا باي سنة ١٩٢٢ فجأة وفي ظروف غامضة، وذلك اثر مواقفه الوطنية الرائعة ضد الاستعمار ، وتأييده المطلق للمطالب الوطنية وللحركات الحزبية التي تنادي بها .

وبعد عشرين سنة فقط لعب الفرنسيون دورا آخر. ومع من ؟ مع ملك شعبي احب شعبه باخلاص لا مثيل له وتعلق به الشعب الى ابعد الحدود ، ومن المؤسف حقا ، ان يكون ضحية هذا الدور الجديد هو كبير ابناء محمد الناصر

---

(١) كان هنا في شهر مارس سنة ١٩٥١

(٢) هو السلطان محمد الخامس الذي تم خلعه يوم ٢٠-٨-٥٣ بتدبير الجنرال جوان وبواسطة الجنرال غيوم مقيم فرنسا بمراكش .. وبرضوخ جورج بيدو وزير خارجية فرنسا يومئذ وقد عاد للعرش مظفرا في نوفمبر ١٩٥٥

(١) نعتبر هذه المعاهدة غير شرعية من وجهة نظر الشعب التونسي باعتبار انها قد فرضت بالقوة، وبمقتضى الميثاق الوطني المعلن يوم ٢٣-٨-١٩٤٦

(٢) تغير وضع هذه المعاهدة بمقتضى بروتوكول الاستقلال لتونس المعلن يوم ٢٠-٣-٥٦ والذي نص فيه على ان معاهدة باردو قد وقع تجاوزها ..

الضحية الاولى لعدوان الاستعمار على السيادة التونسية ورمز ذاتيتها وكيانها الدولي .

في ٢١ جوان ١٩٤١ توفي الملك احمد باشا باي الثاني، وكان معروفا بضعفه تجاه نوايا الاستعمار وسياسته ، فارتقى العرش بعده ولي عهده محمد المنصف ابن محمد الناصر . وماكاد هذا المليك يرتقي العرش حتى بادر برفع الحواجز والقيود التي تحول بينه وبين الاتصال بشعبه ، وكان يسأل المقيم العام الفرنسي في كل مناسبة عن الاعمال التي انجزتها فرنسا خلال عهود حمايتها الطويلة ، ويشتد به الغضب حينما يزور معهدا (١) او دائرة حكومية او مصلحة من المصالح العامة ولا يجد فيها من المسؤولين سوى الفرنسيين، اي ان التونسيين مبعدين عن ادارة بلادهم والتمتع بحقوقهم فيها . كما طالب جلالته حكومة فيشي في مذكرة بعث بها الى المارشال بيتان بوضع حد للحكم المباشر الذي يقوم على وجود الفرنسيين في تونس . وقد تضايق الفرنسيون من مواقفه الوطنية المختلفة واتصاله المستمر بالحركات الشعبية والوطنية وبتجواله كل يوم في منطقة من مناطق القطر ، وضاقوا ذرعا بكل صغيرة وكبيرة من اقواله واعماله وازدادوا حنقا يوم وقف في جامع « منوبة » ـ ضاحية من ضواحي العاصمة التونسية ـ واقسم امام شعبه على خدمة مصلحة الشعب العليا ورعاية حقوق الوطن ، واستعادة ما اغتصب من سيادته واستقلاله . لذلك نجدهم يبادرون الى خلع هذا الملك الصالح في الرابع عشر من ماي سنة ١٩٤٣ اي بعد هزيمة المحور في تونس .

ويضيق بنا المجال هنا عن عرض كافة التفاصيل المتعلقة بمأساة هذا الملك الوطني . ولكنني لا اجد مندوحة من ذكر مجمل عنها . في يوم ٧ ماي ١٩٤٣ دخل الحلفاء منتصرين عاصمة تونس وكان الملك في قصره الشتوي بمدينة حمام الانف ـ ضاحية من ضواحي العاصمة ـ التي وعده المحور بان تكون مدينة مفتوحة ، واستنادا الى ذلك الوعد ظل الملك بها ولجأ اليها عشرات الآلاف من سكان العاصمة.

ولكن المعارك دارت حولها ثم في شوارعها . وقد رفض الملك الخروج من المدينة وترك شعبه يواجه وحده كوارث الحرب وويلاتها. وبعد هزيمة المحور في معركة حمام الانف ودخول الحلفاء اليها منتصرين تقدم الجنرال جوان الى الملك المنصف طالبا منه التخلي عن العرش فرفض الملك هذا الطلب...

وفي يوم ١٤ ماي اذاع الجنرال جيرو البيان التالي :

(ان الجنرال جيرو القائد المدني والعسكري بعد ان درس بروح النزاهة الحالة الناتجة من تحرير البلاد التونسية ، رأى في الظروف الحالية ان وجود جلالة محمد المنصف جالسا على عرش البلاد اثناء احتلال البلاد التونسية من طرف قوات المحور من شأنه ان يضر بالامن الداخلي والخارجي للبلاد التونسية التي تعهدت فرنسا الحكومة الحامية بضمانها ، ولذلك قرر القائد المدني والعسكري خلع الملك محمد المنصف ونصب ولي العهد سمو سيدي الامين باي خلفا عنه حسب تقاليد العائلة الحسينية) «١»

وقد اتخذ الجنرال جيرو هذا القرار بوصفه ممثل فرنسا الاعلى في شمال افريقيا . وكان اتخاذه له باتفاق مع كل من الجنرال جوان الذي عين بعد هزيمة المحور مقيما

(١) زار الملك محمد المنصف المدرسة الصادقية فوجد اكثر اساتذتها فرنسيين ومديرها فرنسيا ايضا . بل واغرب ما لفت نظره وجود استاذ فرنسي قدم اليه باعتباره استاذ اللغة العربية بالمدرسة وكان يدعى « جيرو » فامر حالا بعزله .. اذ من السخف الاستعماري ان يدرس العربية فرنسي في بلاد عربية

«١» انظر كتاب « مأساة عرش .. الذي يحتوي على تفاصيل تاريخية ذات أهمية .

عاما لفرنسا في تونس ، والجنرال مورو مدير الامن العام في تونس ، والجنرال باري قائد جيش الاحتلال الفرنسي في تونس والاخير هو الذي فر بجنوده من عاصمة تونس الى حدود الجزائر وظل منفردا هناك ينتظر كفة النصر مع من تكون : أمع المحور فينضم اليهم ام مع الحلفاء فيلوذ بهم ، وقد مات احد الاخيرين في ظروف غامضة بتونس ، قيل انه انتحر ، وقيل مات بحادث كهربائي ، اما الثاني فمات في حادثة جوية ، واختفى بعدهما الجنرال جيرو لاشاعة عدم اخلاصه لفرنسا ، اما جوان فان مصيره لن يكون احسن من الآخرين ،

(وقد عمد الفرنسيون قبيل اعلان البيان السابق بساعات قليلة الى تنفيذ ما قرروه في ساعة مبكرة من يوم الجمعة الرابع عشر من ماي ، فنقلوا ملك تونس الشرعي على متن طائرة منفيا الى الاغواط من صحراء الجزائر) «١»

دون ان يكون معه احد من ابنائه او اخصائه او مرافقيه. وسجن في مكان ضيق بلغت درجة الحرارة فيه خمسين درجة فوق الصفر ، ثم نقلوه بعد ذلك بمدة طويلة الى مدينة تنس بالجزائر ، ثم نقلوه مرة اخرى بعد انتهاء الحرب الى مدينة « بو » في جنوب فرنسا ، وظل الملك في هذا المنفى الى ان مات في غرة سبتمبر سنة ١٩٤٨ اي بعد نيف وخمس سنوات قضاها في العذاب والاضطهاد ، ومما يبعث الشك والارتياب في ظروف موته انه مات بعد ان عثر الحلفاء على وثائق في وزارة الخارجية الالمانية تثبت انه كان يقاوم سياسة المحور في بلاده ، وقد رفض جلالته اعلان الحرب ضد الحلفاء حين طلب الالمان منه ذلك كرد من جانبهم على اعلان العراق الحرب ضد المحور ، وبذلك اثبت انه كان حريصا على حياد بلاده ومصلحة شعبه ، وقد حاول الفرنسيون مساومته على العودة للعرش او للوطن على اساس الانضمام للاتحاد الفرنسي والاعتراف «بالحضور الفرنسي » فرفض جلالته العودة للعرش او للوطن الا على اساس الاعتراف بالاستقلال التام لتونس والجلاء عنها ،

ومن كلماته في المنفى التي يصف بها حنينه لشعبه واشواقه اليه ، وعطفه وحبه للمضطهدين والعاملين من ابناء شعبه ، قوله :

احب شعبي

احب فيه العامل المستثمر المستعبد والفلاح المطرد ،

احب فيه ذلك الصانع الحازم الذي ينصب لتحصيله قوته ،

احب الطالب المتغرب ،

احب كل من يكافح ويشقى ،

نعم ، احب شعبي حبا جما حتى اني اشعر شعورا عميقا باني لن اراه ، وهذا ما يؤلمني ،

وقد اعيد جثمانه الى الوطن على متن نسافة فرنسية، وكان لموته اثر أليم في نفوس الشعب التونسي ، وقد دفن جلالته في مقبرة (الجلاز) حسب وصيته ، وهي مقبرة شعبية اي انه اوصى بان يدفن حيث يدفن عامة الناس من ابناء الشعب ، وكانت ايام وصول جثمانه ايام دموع وحداد وحزن وكآبة لم يعرف الشعب التونسي لها مثيلا في تاريخه الحديث (١) ويكفي للتدليل على ذلك ان عدد المشيعين لجنازته من افراد الشعب قدر بين الثلاثمائة والاربعمائة الف نسمة ، وقد ظل جثمانه بعد وضعه في الضريح وقبل ان يوارى التراب ثلاثة ايام بلياليها وافراد الشعب

«١» مأساة عرش ص ٨٠ بتصرف

«١» كتب هذا في ماي ١٩٥١ وقد عرف الشعب التونسي بعد ذلك اشد منها يوم اغتال المجرمون الاستعماريون الشهيد العظيم فرحات حشاد ، انظر كتاب « حصاد القلم » للمؤلف ص ١٢٦ فصل عن حشاد بعنوان : « الزعيم الشهيد »

يمرون ليل نهار ليشاهدوه للمرة الاخيرة فيودعونه الوداع الاخير . وقبره اليوم رمز تضحية جبارة ومصدر وحي بالبطولة والاستشهاد .

وقبل ان انتقل بكم الى الفصل الاخير من هذا الحديث لابد لي من الاشارة الموجزة لما لقيه الشعب التونسي اثر خلع الملك محمد المنصف من اضطهاد وتنكيل ، حيث (قام الجيش الفرنسي والسلطات الفرنسية في كافة انحاء القطر بحركة قمع اجماعي) ، فاصدرت اوامرها باعدام الآلاف من التونسيين الابرياء ، فاعدموا رميا بالرصاص . وقد شاهدت بنفسي في مدينة «قفصة» مسقط رأسي، كيف أعدم الجنود الفرنسيون في مرة واحدة ثلاثة وثلاثين شخصا رميا بالرصاص وبدون محاكمة . وقد نسف الفرنسيون كثيرا من القرى الآمنة وقتلوا سكانها . حتى بلغ عدد الذين قتلوا في هذه الحملات العدوانية اثنى عشر الفا ، وبلغ عدد الذين اعتقلوا او سجنوا لمدد تتراوح بين السنة والسجن المؤبد اربعين الف نسمة «١» وازاء هذا العدوان الوحشي المسلح لم يجد الشعب التونسي مناصا من الثورة ، فقام بعدة ثورات مسلحة في جهات مختلفة من انحاء القطر دام بعضها مدة سنتين كاملتين .

الفاجعة الكبرى

سيداتي سادتي

لقد رأينا حتى الآن ان الفرنسيين لم يسوسوا البلاد الا بالحديد والنار والبطش والارهاب . وقد عرضت عليكم صورا من هذين في كل من الجزائر وتونس ومراكش . وها انا الآن اختتم هذا العرض بالحديث عن الفاجعة الكبرى التي نكبت بها الجزائر في شهر ماي سنة ١٩٤٥

وان في الظروف والملابسات التي رافقت هذه الفاجعة ما يدل دلالة واضحة على مدى الوحشية المتأصلة في نفوس المستعمرين المعتدين ، وعلى مقدار ما يتصف به المستعمرون من صفات لا تشرف احدا من بني الانسان ، ولا يقبل ان يتحلى بها او يعمد اليها حتى كبار المجرمين والسفاكين في العالم . ولكن الاستعمار الفرنسي يعمد دائما الى اقتراف الجرائم والآثام وتقتيل الابرياء وحرق القرى بما فيها ومن فيها وابادة قبائل بكاملها «١» في يوم اعتبرته الانسانية عيدا من اعياد الحرية الكبرى .

ففي يوم ٨ ماي بينما العالم «الحر» يحتفل في جميع ارجاء المعمورة بانتصار الحلفاء ، الذين قالوا عن انفسهم : انهم يدافعون عن المبادىء المقدسة للبشرية جمعاء ، واعلنوا ميثاق الاطلسي والحريات الاربع وميثاق الامم المتحدة ، وحاربو - كما يزعمون - دفاعا عن حرية الشعوب وحقها في الحياة المستقلة وللقضاء على الوحوش النازيين والفاشست في هذا اليوم وبينما شعوب العالم «الحر» تستخفها نشوة النصر فترتفع الضحكات الى اعالي الفضاء ، وتمتلىء الاجواء باغاني افراحها وموسيقى رقصاتها ، كانت هناك في جزء من دنيا العرب دماء تسيل انهارا ، وجموع من البشر تموت حرقا وشنقا ورميا بالرصاص وطعنا بالحراب ، في هذا اليوم كان الشعب العربي في الجزائر يواجه وحيدا اكبر نكبة حلت به في تاريخه الطويل . في هذا اليوم كانت فرنسا تقدم الى الشعب الجزائري ثمن تضحياته في سبيل قضية

«١» انظر في مجلة الرسالة المصرية مقالا للاستاذ سيد قطب . بعنوان «لغة العبيد» حيث اورد هذه الارقام نقلا عن برقيات ممثل المغرب العربي بامريكا : الرسالة عدد جانفي ١٩٤٧

«١» انظر الفصل الخاص باحتلال الجزائر في هذا الكتاب .. وانظر ما كتبته الصحف الفرنسية نفسها عن اعمال القمع الجماعي بالجزائر خلال ثورتها التحريرية الحالية .. وعلى الاخص ما كتبته او نشرته مجلة «اوبسرفاتور» التقدمية الحرة ..

الحلفاء وفي سبيل تحرير فرنسا نفسها من «الوحوش النازيين»

لقد وضع الشعب الجزائري ارضه وسماءه وبحره وموانيه وكامل انتاجه تحت تصرف الحلفاء وقدم عشرات الآلاف من ابنائه الى ساحات القتال في افريقيا واوربا حيث قتلوا في سبيل « الدمقراطية وحرية الشعوب » !. واخيرا جاء اليوم الموعود . يوم هزيمة النازية وانتصار الدمقراطية فتظاهر الشعب الجزائري ابتهاجا بانتصار الحلفاء ـ ومنهم فرنسا بطبيعة الحال ـ ومطالبا بتحقيق الوعود وتطبيق المواثيق وبنصيبه من الحرية التي بذل في سبيلها ارواح ابنائه في كل معركة . فكان الجزاء نارا من السماء ولهيبا من الارض وجحيما من البحر . الطائرات والدبابات، البوارج والمدرعات ، الرشاشات والمصفحات كلها اشتركت في تقتيل الابرياء ونسف القرى وحرق بني الانسان حرقا اجماعيا « لقد ظن اخواننا الجزائريون انهم ـ وقد شاركوا في هذه التضحيات بارواحهم وكل ما يملكون ـ لهم الحق في ان يحتفلوا كغيرهم من الحلفاء بعيد طالما منتهم به الايام ، ذلك العيد الذي سيشعرون فيه لاول مرة انهم يشاركون ابطال العالم كله في فرح واحد وسرور متحد ، كما شاركوهم في اسالة الدموع والدماء. ولذلك فقد خرجوا يوم الاحتفال يطوفون الشوارع مع غيرهم من المتظاهرين ويحملون علم الجزائر الذي يمثل راية الامير عبد القادر مؤسس الاستقلال الجزائري، ولكن كبر على المستعمرين الفرنسيين ان يتركوا هؤلاء العرب يتنفسون قليلا في هذا اليوم ، ويعلنون رجاءهم في ان يتحقق املهم في بعث الدولة الجزائرية المستقلة ، فهاجموا الجزائريين العزل واسقطوا العلم ، ونشبت معارك عنيفة بين العرب والمستعمرين ، قاتل فيها الاولون بالعصي والحجارة ، وقاتل فيها الآخرون بالحديد والنار ، اي بالاسلحة التي هيئتها لهم الاعارة والتأجير الامريكية ، واسفرت المعارك الكبيرة عن سقوط اقل من مائة قتيل فرنسي وعشرات الآلاف من القتلى الجزائريين»(١) اما عدد الذين سجنوا فقد بلغ ما لا يقل عن مائتي الف سجين ، بينهم عدد كبير من الزعماء وقادة الاحزاب التحريرية في الجزائر . ولا يزال حتى اليوم عدد من هؤلاء يعيشون في سجون مظلمة لا عدل فيها ولا رحمة .

«ان من المستحيل ان تكون هذه المهاجمات التي قام بها المستعمرون في الجزائر وليدة الصدفة بل انها كانت مدبرة مبيتة سلح فيها الفرنسيون والفرنسيات ، وتضامنت فيها الاحزاب الفرنسية كلها لتقتل الشعب الجزائري المنكوب ، الاعزل من كل سلاح، لا لشيء الا لانه يريد ان يأخذ حقه من النصر ، كما اخذ حقه من الحرب ، ويفوز بقسط من حريته القومية كما شارك في تحرير غيره من الشعوب

ولم تكن هذه المعارك في مكان واحد بل كانت في جهات متعددة ، واهمها في «سطيف» وافظعها في « قالمة » حيث اصطيد آلاف الشبان المسلمين وسيقوا افواجا الى المذبحة وقتلوا رميا بالرصاص .

لقد حاول المستعمرون ان يبرروا هذه المهاجمة بدعوى ان مصالي زعيم حزب الشعب الجزائري تجول لالقاء خطب مهيجة في بعض الجهات ، ولكن هل من الحق ان يقابل خطاب يلقيه زعيم في جهة ما ـ مهما كان هذا الخطاب قاسيا وعدائيا ـ باغراق الشعب باحدث انواع الاسلحة الجهنمية واصلائه نارا حامية يتلظى اوارها وحربا طاغية لا قبل له بصدها ؟

(١) المصدر السابق ص ٢٩

الواقع انه كبر على الفرنسيين ما ظهر به الجزائريون من وعي قومي وطموح للحرية ورفض للتجنيس . لقد كانت الجنسية الفرنسية هي الاغنية التي يهدىء بها الفرنسيون اعصاب الاهالي كلما ثاروا واحتجوا ، لانها ستجلب لهم الحرية والسعادة والهناء الدائم ، ولكن الفرنسيين اصطدموا هذه المرة – كما اصطدموا قبلها وبعدها – بالحقيقة الجزائرية وهي ان الشعب الجزائري لا يرضى بغير الحرية الكاملة والاستقلال التام ، وان المائة وعشرين عاما التي قضاها تحت حافر المستعمر لم تقتل في نفسه شعوره بقوميته وملته وعروبته ، بل زادته حنقا على الاستعمار ، وتشبثا باهداب حقه الضائع .

وحنق المستعمرون فلم يستطيعوا هضم هذا الواقع وتريثوا مدة الحرب – وهم يستعدون – حتى اذا تم الظفر على المحور وعادوا بمنجاة من مخاوفهم انتفشوا كما تنتفش الهررة ، وانطلقوا على المساكين ينتقمون منهم ، ليثبتوا لهم ان القوات الفرنسية ما تزال قاهرة ! وان فرنسا (الخالدة) لا تنفك بالمرصاد للذين يطالبون بالحرية او ينادون بالاستقلال

ومهما يكن فان هذه الفاجعة اثبتت للعالم فظاعة الاستعمار الفرنسي واكدت للذين يجهلون : ان الشعب الجزائري لم يقبل ابدا حكم فرنسا له ، ولقد زاد هذه الحقيقة وضوحا روح الشجاعة التى ظهر بها المعتقلون من مختلف الاحزاب الجزائرية حيث اكدوا بصراحة ووضوح ثباتهم على المبادىء واستعدادهم للبذل في سبيل الوطن المنكوب(1)

سيداتي سادتي

لقد قلت اكثر من مرة خلال هذا الحديث ، ان الاستعمار الفرنسي يريد ان يستعمر المغرب الى الابد ، ويريد ان يستأثر بخيراته وامكانياته كلها ، وقد سلك الفرنسيون لتحقيق هذا الغرض كافة الطرق واستخدموا جميع الوسائل ، وبذلك برهنوا على مدى جشعهم وطمعهم ومدى عنادهم وغرورهم . هذا الطمع الذي سيجعلنا نقف لهم بالمرصاد كي لا تمتد ايديهم بعد ذلك الى خيرات بلادنا فتستولي عليها بالسلب والنهب .

ان الحرب التي اوقد نارها المستعمرون منذ قرن ونصف في المغرب العربي لم تضع اوزارها بعد ، ولن ينتهي قتالها الا يوم ان « تسحق هذه اللعنة ، لعنة الاستعمار والمستعمرين » .

ان السلام لن يسود المغرب العربي ، ولن يسود العالم باسره ما لم يطرد آخر مستعمر في المغرب العربي او يموت آخر عربي في هذه الارض .

ان المعركة معركة حياة او موت ، وهم يتطلعون الى يوم يستطيعون فيه ابادتنا ، فلماذا تتأخر نحن عن القيام بنفس الدور ! .

لقد خاطبناهم مدى عشرات السنين بلغة الانسانية ، واستعملنا لاقناعهم كل الاساليب المعروفة في عصرنا الحاضر وحاولنا ان نجعلهم يدركون – ونحن لسنا مجبورين بذلك – بان لنا حقوقا في هذه الارض ، هي حقوق اهلها وحدهم ، وبان هذه الارض لن تكون فرنسية وفي ابنائها فرد واحد على قيد الحياة ، انها عربية كانت وعربية هي الآن وعربية ستظل الى الابد ، ولكنهم استمروا في عنادهم وغرورهم . وها هم الآن يتوجسون الانتفاضة من كل مكان ، ويمتلئون رعبا كلما علموا بان استعداد المغاربة للموت في سبيل بلادهم قد ازداد اتساعا وتنظيما . ورغم ذلك كله ، فانهم لا يزالون ممعنين في سياسة القضاء على كيان المغرب العربي . ففي كل يوم يطلعون علينا بمشروع جديد . فبعد السياسة البربرية ، وسياسة الفرنسة بالتجنيس وسياسة التبشير بالمسيحية ومحاولة تنصير المسلمين المغاربة

(1) الحركات الاستقلالية ص ٣١ – ٣٢ بتصرف محدود

جماعات وافرادا ، وبعد فتح ابواب الهجرة للمغرب العربي في وجه الفرنسيين والاجانب ومنح الجنسية الفرنسية للجاليات الاجنبية غير الفرنسية ولليهود لجعل الفرنسيين اكثرية في يوم من الايام وبعد سن كافة التشاريع لتسهيل العمل على تحقيق ذلك ، بعد هذا كله يلجأون يائسين اثر الحرب العالمية الاخيرة الى نوع جديد من هذه السياسة متمثلا في نظام الاتحاد الفرنسي . وبديهي ان هذا النظام لم ينجح ولن يكتب له شيء من النجاح بفضل تكتل النضال القومي في المغرب وبفضل صمود العرب الافارقة ، وتمسكهم في عناد يفوق العناد الفرنسي بعروبتهم ودينهم الاسلامي . هذان المقومان اللذان يستمد منهما المغاربة القوة في الكفاح ، والايمان بالحق السليب والحرية الضائعة

اننا لسنا اعداء لاي شعب من شعوب الارض ، ولقد اثبتنا اكثر من مرة تايدنا للنضال التحرري الذي تقوم به كافة الشعوب المضطهدة في جميع انحاء العالم . ونحن بدورنا نريد ان نظفر بمثل هذا التأييد . ونريد ان ننال حقنا كاملا في ادارة بلادنا بانفسنا ، وفي ان يتمتع شعبنا بحريته واستقلالة دون اي نفوذ اجنبي او تدخل خارجي .

اننا لسنا عدائيين حين نطالب المستعمرين الفرنسيين والاسبان بالجلاء عن بلادنا وتركنا وشأننا . ولسنا ايضا مثاليين او خياليين حتى نكافح بالاحتجاجات والمظاهرات وحدها ، بل اننا نعتقد اعتقادا جازما بان المستعمرين لن يتركوا بلادنا الا وهم مكروهون على ذلك بالحديد والنار لذلك فانني لا اعلن سرا اذا قلت : انه ليس بعيدا ذلك اليوم الذي ينتفض فيه المغرب العربي انتفاضته التحريرية الكبرى فيرفع علم الاستقلال على اشلاء الضحايا ، ويكتب وثيقة الخلاص بدم الشهداء .

بغداد ١٢ - ٥ - ١٩٥١

مراجع الكتاب

«١» الحركات الاستقلالية في المغرب العربي للاستاذ علال الفاسي - القاهرة ١٩٤٨

«٢» حول الحركة العربية للاستاذ محمد عزة دروزة صيدا - لبنان ١٩٥٠

«٣» ماسأة عرش : مكتب اللجنة التنفيذية للاستعلامات بالقاهرة

«٤» ظاهرة مريبة . . . . مكتب اللجنة التنفيذية للاستعلامات بالقاهرة

«٥» هذه تونس للمرحوم الدكتور الحبيب ثامر مكتب المغرب العربي بالقاهرة - ١٩٤٨

«٦» هذه مراكش للاستاذ عبدالمجيد بن جلون مكتب المغرب العربي بالقاهرة - ١٩٥٠

استشهاد

المرحوم احمد رضا حوحو



تنعي بكل ألم وحزن شديدين الى قراء « كتاب البعث » نباء استشهاد عضو من اسرتنا المرحوم الاستاذ احمد رضا حوحو الذي كان مؤلف الحلقة الثالثة من سلسلة « كتاب البعث » بعنوان (نماذج بشرية .)

فقد تواترت الانباء تؤكد خبر اعدامه رميا بالرصاص مع عدد من مواطنينا في قسنطينة ، بعد ان اخذ عنوة من معهد عبد الحميد بن باديس في جملة الرهائن التي تتولى قوات الاستعمار الفرنسي الغاشمة اختطافها واعدامها دون محاكمة وبلا تمييز .